الدرس الثالث: نقد الشعر لقدمة بن جعفر قضية "مفهوم الشعر"

عرف العصر العباسي تأثر الثقافات بعضها ببعض، نتيجة الترجمة وغيرها من العوامل، فترجم العرب العديد من الكتب منها المتعلقة بالعلوم والكيمياء والرياضيات والطب وصولا إلى المنطق والفلسفة ومن أشهر الكتب التي ترجمت في المنطق كتب أرسطو ومنها كتابه "فن الشعر"، و"الخطابة"، ومن بين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية، الناقد قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" الذي جعل كتابه يميل إلى العقل المنطقي أكثر من الذوق الأدبي.

1. نبذة عن الكاتب

هو قدامة بن جعفر بن قدامة ولد في البصرة عام 260 ه، قرأ وتتلمذ على والده وعلى المبرد...وغيره، اجتهد وبرع في البلاغة والحساب، والمنطق...وغيرها، اشتهر بالبلاغة ونقد الشعر والكتابة، تمتع بثقافتين العربية، والثقافة اليونانية فقد اطلع على كتاب الخطابة لأرسطو، توفي سنة 337ه، تاركا مجموعة من الكتب منها:

أ. سر البلاغة في الكتابة
ب. الخراج
ت. الرد على ابن المعتز

2. نبذة عن الكتاب

كان كتاب "نقد الشعر" ذو أثر كبير في حركة النقد العربي ونهضته، وقد فصل قدامة في كتابه مذهبه في النقد الذي احتذى فيه حذو أرسطو في كتابه "فن الشعر" الذي ترجمه بشر بن متى، إلا أن بدوي طبانة يرى أن قدامة لم يطلع على هذه الترجمة لأنها كانت غير صحيحة وإنما اطلع عليه في أصله اليوناني، انطلاقا من تحديده عناصر الشعر والمتمثلة في اللفظ والمعنى والوزن والقافية.

بين قدامة سبب تأليف كتابه "نقد الشعر" أنه بعد أن قال أن العلم بالشعر ينقسم أقساما: فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به، وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه". فقد عني الناس بوضع الكتب في الأقسام الأربعة الأولى، إلا أنه لم يجد أحدا وضع علما في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه.

يتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول، فالمقدمة ذكر فيها أسباب ودواعي تأليفه للكتاب، أما الفصل الأول فتطرق فيه إلى تعريف الشعر وفصل فيه، كما تطرق إلى صناعة الشعر مفرقا بين ثلاث منها: صناعة في غاية الجودة، وصناعة في غاية الرداءة، وصناعة تجمع بين الأول والثاني وهي صناعة متوسطة، كما تحدث عن قضية الشعر والأخلاق، أما الفصل الثاني فخصصه لذكر نعوت لأجناس الثمانية، أما الفصل الثالث فخصصه لذكر عيوب تلك الأجناس الثمانية.

3. أهم القضايا في الكتاب

من أهم القضايا التي تطرق إليها قدامة بن جعفر في كتابه:

أ. تحدث عن علوم الشعر والتي قسمها إلى خمسة أقسام:
1. علم العروض والوزن
2. علم القوافي والمقاطع

3. علم الغريب واللغة
4. علم المعاني والمقاصد
5. علم الجيد والرديء من الشعر

ب. ثم تحدث أن الشعر صناعة وليس تصنعا، تلك الصناعة الموجهة للموهبة وليس التصنع المخالف للموهبة، وذلك يكون باتباع قواعد الشعر التي توصلك إلى الإتقان والجودة.

ت. وتحدث عن معاني الشعر، وأنها معروضة لكل شاعر، فهي كالمادة والشعر هو صياغة لهذه المادة، فقد تكون المادة شريفة وجيدة ولكن صياغتها رديئة.

ث. كما أراد قدامة أن يؤكد قضية وهي أنه لا ينبغي الحكم على الفن بأحكام أخلاقية.

4. قضية مفهوم الشعر عند قدامة

أ. تعريف الشعر

1. لغة

وردت كلمة شعر في المعاجم العربية بمعان عدة، الشعر منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، ويقال شعر فلان وشعر يشعر شعْرا وشِعرا، بمعنى أحس، وسمي شاعرا لفطنته".

2. اصطلاحا

تعددت الآراء والأقاويل حول مفهوم الشعر، فكل يدعي أن مفهومه هو عين الصواب، فبين من نظر إليه من حيث ألفاظه ونظمه، وآخر نظر إلى جرسه وقافيته، وآخر إلى معانيه وتراكيبه، ليركز آخرون على سحره وتأثيره، وعاطفته، فالجاحظ مثلا ربط الشعر بالصناعة والتصوير.

عرف قدامة الشعر انطلاقا من تأثره بالمنطق على أنه:"قول موزون مقفى يدل على معنى"، هذا ما جعله يتميز عن الكلام العلمي، وعن الكلام العادي، ووضعه لهذه الأدوات جعلت من الشعر قابل لأن يصنف إلى جيد أو رديء، إلا أن القصيدة لا يمكن أن تكون جيدة بأكملها ولا رديئة بأكملها، بل فيها الجيد والرديء، لأن الشاعر المطبوع، قد يكون في قمة العاطفة فيكتب أجود الشعر، وقد تفتر عاطفته، فتجد شعره يميل إلى الرداءة، وهناك مناطق وسط بينهما تسمى الوسائط، هذا ما عبر عنه ابن قدامة بقوله:"ويصنع الشعر على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة وحدود بينهما تسمى الوسائط.

وفي حديث قدامة أيضا عن عناصر الشعر، استمد فكرته من المنطق، فذكر أن العناصر التي يتكون منها الشعر لها أوصاف تجعلها في غاية الجودة أو غاية الرداءة، سواء وهي منفردة أو هي مؤتلفة مع بعضها البعض، فوقف عند أربعة عناصر مؤتلفة وهي:

أ. ائتلاف اللفظ مع المعنى
ب. ائتلاف اللفظ مع الوزن
ت. ائتلاف المعنى مع الوزن
ث. ائتلاف المعنى مع القافية

فصارت الأجناس عنده ثمانية وهي الأربعة المفردة:

1. اللفظ
2. المعنى
3. الوزن

4. القافية

إضافة إلى العناصر الأربعة السابقة.

5. الكتاب في ميزان النقد

ممن وجهوا انتقادات إلى كتاب "نقد الشعر" نجد الآمدي الذي ألف كتاب"تبيين غلط قدامة في نقد الشعر"، وابن رشيق في كتابه "تزييف نقد قدامة".

أ. مما أخذ على قدامة قوله أنه أول من ألف في نقد الشعر، فهو غفل جهود النقاد الذي سبقوه أمثال: الأصمعي "فحولة الشعراء"، وابن سلام الجمحي "طبقات فحول الشعراء"، وابن قتيبة "الشعر والشعراء"...وغيرهم.

ب. تعامل قدامة مع فن هو نقيض المنطق (الشعر) بطريقة منطقية.

في الأخير يمكن القول مهما قدم لقدامة من مآخذ إلا أن للكتاب أهمية كبرى فقد أراد أن يخلص نقد الشعر من الأحكام الذوقية، وتحويله إلى علم في منهج ومصطلحاته. متأثرا في ذلك بالفكر المنطقي والأرسطي، وذلك من خلال حصر الشعر في عناصر أساسية وهي: اللفظ والوزن والقافية والمعنى، والاختصار الذي مس الكتاب، وفي حديثه عن "أصدق الشعر أكذبه" و...غيرها. وفي وضعه مصطلحات جديدة مثل الحد، والجنس، والفصل...وغيرها. أكثر من تأثره بمناهج النقاد العرب كالأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم ليتبعه العديد من النقاد فيما بعد أمثال: وأبو هلال العسكري، وابن رشيق، وابن سنان الخفجي...